سورة المؤمنون(1)

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ①﴾

لما قال الحق ـ تبارك وتعالى ـ فى الآية قبل السابقة من سورة الحج ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ⑰⑰﴾ [الحج] ولعلَّ تفيد الرجاء ، أراد سبحانه أن يؤكد هنا على فلاح المؤمنين فقال : ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ①﴾ [المؤمنون] وأن الرجاء من الله واقع ومؤكد ، لذلك جاء بأداة التحقيق ﴿قَدْ﴾ التى تفيد تحقُّق وقوع الفعل ، وهكذا تنسجم بداية سورة (المؤمنون) مع نهاية سورة (الحج) .

وقوله تعالى هناك ﴿تُفْلِحُونَ ⑰⑰﴾ [الحج] وهنا ﴿أَفْلَحَ ①﴾ [المؤمنون] مادة (فلح) مأخوذة من فلاحة الأرض ، والفَلْح هو الشق ؛ لذلك قالوا : إن الحديد بالحديد يفلح ، وشَقُّ الأرض : إهاجتها وإثارتها بالحرث ، وهذه العملية هى أساس الزرع ، ومن هنا سُمِّى الزرع حَرْثًا فى قوله سبحانه : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ

---

(1) سورة المؤمنون ، هى السورة رقم (٢٣) فى ترتيب المصحف الشريف . عدد آياتها ١١٨ آية ، وهى سورة مكية كلها فى قول الجميع . قاله القرطبى فى تفسيره (٦/٤٦٣٥) . وهى السورة رقم ٧٣ فى ترتيب النزول ، نزلت بعد سورة الأنبياء وقبل سورة السجدة . قاله ابن الضريس فى فضائل القرآن فيما نقله عنه السيوطى فى « الإتقان » (٢٧/١) .

الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ (٢٠٤) وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ (٢٠٥)﴾ [البقرة]

ومعنى أفلح : فاز بأقصى ما تتطلع إليه النفس من خير .

والأرض حين تحرثها تكون خالية ليس فيها شيء يُهْلَك ، إذن : المراد بالحرث هنا الزرع الناتج عن عملية الحرث ، والتى لا بُدَّ منها كى تتم عملية الزراعة ؛ لأنك بالحرث تثير التربة ليتخللها الهواء ، فيزيد من خصوبتها وصلاحها لاستقبال البذرة ، وسبق أن تحدثنا عن عملية الإنبات ، وكيف تتم ، وأن النبات يتغذى على فَلْقتى البذرة إلى أن يصبح له جذر قوى يستطيع أن يمتصّ من التربة ، فإن ألقيتَ البذرة فى أرض صماء غير مثارة فإن الجذر يجد صعوبة فى اختراق التربة والامتصاص منها .

فالحق - تبارك وتعالى - يعطينا صورة من واقعنا المشاهد ، ويستعير من فلاحة الأرض ليعبر عن فلاح المؤمن وفوزه بالنعيم المقيم فى الآخرة ، فالفلاح يحرث أرضه ويسقيها ويرعاها فتعطيه الحبة بسبعمائة حبة ، وهكذا سيكون الجزاء فى الآخرة : ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦١)﴾ [البقرة]

فإذا كانت الأرض المخلوقة لله عز وجل تعطى كل هذا العطاء ، فما بالك بعطاء مباشر من خالقك وخالق الأرض التى تعطيك ؟ وكما أن الفلاح إذا تعب واجتهد زاد محصوله ، كذلك المؤمن كلما تعب فى العبادة واجتهد زاد ثوابه وتضاعف جزاؤه فى الآخرة .

﴿ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝٢ ﴾ (١)

كان أول ظاهرية الفلاح فى الصلاة ، وما يزال الحديث عنها موصولاً بما قاله ربنا فى الآيات السابقة : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ ۝٧٧ ﴾ [الحج] وقال بعدها : ﴿ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ .. ۝٧٨ ﴾ [الحج]

وهنا جعل أول وصف للمؤمنين الذين أفلحوا ﴿ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝٢ ﴾ [المؤمنون] فلم يقل مثلاً : مؤدون ؛ لأن أمر أداء الصلاة فى حق المؤمنين مفروغ منه ، العبرة هنا بالهيئة والكيفية ، العبرة بالخشوع والخضوع وسكينة القلب وطمأنينته واستحضار الله الذى تقف بين يديه .

كما تقول لولدك : اجلس أمام المعلم باهتمام ، واستمع إليه بإنصات ، فأنت لا توصيه بالذهاب إلى المدرسة أو حضور الدرس ، فهذا أمر مفروغ منه ؛ لذلك تهتم بجوهر الموضوع والحالة التى ينبغى أن يكون عليها .

والخشوع أن يكون القلب مطمئناً ساكناً فى مهمته هذه ، فلا ينشغل بشىء آخر غير الصلاة ؛ لأن الله ما جعل لرجل من قلبين فى جوفه ، وما دام فى حضرة ربه عز وجل فلا ينبغى أن ينشغل بسواه ، حتى إن بعض العارفين لمعنى الخشوع يقول : إن الذى

---

(١) سبب نزول الآية : أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن محمد ابن سيرين قال : « كان أصحاب رسول الله ﷺ يرفعون أبصارهم إلى السماء فى الصلاة ويلتفتون يميناً وشمالاً ، فأنزل الله ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝٢ ﴾ [المؤمنون] فقالوا برؤوسهم ، فلم يرفعوا أبصارهم بعد ذلك فى الصلاة ، ولم يلتفتوا يميناً ولا شمالاً » [أورده السيوطى فى الدر المنثور ٦/٨٣] .

يتعمد معرفة مَنْ على يمينه أو مَنْ على يساره فى الصف تبطل صلاته[١] .

ولما دخل سيدنا عمر - رضى الله عنه - على رجل يصلى ويعبث بلحيته ، فضربه على يده وقال : لو خشع قلبك لخشعتْ جوارحك[٢]. ذلك لأن الجوارح تستمد طاقتها من القلب ومن الدم الذى يضخه فيها ، فلو شغل القلب عن الجوارح ما تحركت .

لذلك لما سأل أحد الفقهاء صوفياً : ما حكم مَنْ سها فى صلاته ؟ قال : حكمه عندنا أم عندكم ؟ قال : ألنا عند ولكم عند ؟ قال : نعم ، عند الفقهاء مَنْ يسهو فى الصلاة يجبره سجود السهو ، أما عندنا فمَنْ يسهو فى الصلاة نقتله . يعني مسألة كبيرة .

ثم ألاَ يستحق منك ربك وخالقك أن تتفرغ له سبحانه على الأقل وقت صلاتك ، وهى خمس دقائق فى كل وقت من الأوقات الخمسة ، وقد تركك باقى الوقت تفعل ما تشاء ؟ أتستكثر على ربك أن تُفرِّغ له قلبك ، وأن تستحضره سبحانه ، وهذه العملية فى صالحك أنت قبل كل شيء ، فى صالحك أن تكون فى جلوة مع ربك تستمد منه سبحانه الطاقة والمعونة ، وتتعرض لنفحاته وإشراقاته وتقتبس من أنواره وأسراره ؟

ومن حرص أهل التقوى على سلامة الصلاة وتمامها قال أحدهم

(١) قاله معاذ بن جبل رضى الله عنه فيما ذكره عنه أبو محمد عبد الحق الإشبيلي فى « الصلاة والتهجد » (ص ١٩٣) .

(٢) ذكر أبو محمد عبد الحق هذا الأثر فى كتاب « الصلاة والتهجد » (ص ١٩٨) بتحقيقى - طبعة دار الوفاء المنصورة ، ولكن عزاه للحسن البصرى ، وذكر له أيضاً أن الحسن نظر يوماً إلى رجل يعبث بالحصباء فى الصلاة وهو يقول : اللهم زوِّجنى من الحور العين ، فقال له : بئس الخاطب أنت ، تخطب الحور العين وأنت تعبث بالحصباء .

لصاحبه الذى يحرص على أنْ يؤم الناس : لماذا تحرص على الإمامة وأنت تعرف أن طالب الولاية لا يُولَّى ؟ قال : نعم أحرص عليها لأخرج من الخلاف بين الشافعى الذى قال بقراءة الفاتحة خلف الإمام ، وأبى حنيفة الذى قال بأن قراءة الإمام قراءة للمأموم ، فأحرص على الإمامة حتى أقرأ أنا ، ولا أنشغل بهذا الخلاف .

﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ ﴾

اللغو : الكلام الذى لا فائدة منه ، ويُطلق أيضاً على كل فعل لا جدوى منه ، وفى موضع آخر يقول تعالى : ﴿ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ۝٧٢ ﴾ [الفرقان] لا يشغلون به ولا يأبهون له ، وحكى القرآن عن الكفار عند سماعهم القرآن قولهم : ﴿ لا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ .. ۝٢٦ ﴾ [فصلت]

لذلك جعل الحق - تبارك وتعالى - من نعيم الجنة : ﴿ لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلا تَأْثِيمًا ۝٢٥ إِلاَّ قِيلاً سَلامًا سَلامًا ۝٢٦ ﴾ [الواقعة] كان من المعايب فى الدنيا ومن مصائبها أن نسمع فيها لغواً كثيراً لا فائدة منه ، وفى آية أخرى يقول عن خمر الآخرة التى لا تُذهب العقل ، ولا تجعل صاحبها يهذى بلغو الكلام : ﴿ يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لاَّ لَغْوٌ فِيهَا وَلا تَأْثِيمٌ ۝٢٣ ﴾ [الطور]

و ﴿ مُعْرِضُونَ ۝٣ ﴾ [المؤمنون] الإعراض فى الأصل تجنُّب الشىء ، وهو صورة لحركة إباء النفس لشىء ما . وأهل المعرفة يضعون للغو مقياساً ، فيقولون : كل عمل لا تنال عليه ثواباً من الله فهو لغو .

لذلك احرص دائماً أن تكون حركتك كلها لله حتى تُثَابَ عليها ، كصاحبنا الذى دخل عليه رجل وقصده فى قضاء أمر من الأمور وهو لا يملك هذا الأمر ، لكن أراد أنْ يستغل فرصة الخير هذه ، وأن يكون

له ثواب حتى فى حركة الامتناع عنه ، فرفع يده : اللهم إنه عبد قصد عبداً وأنا آخذ بيده وأقصد رباً ، فاجعل تصويب خطئه فى قصدى تصويباً لقصدك . يعنى : أنا وإنْ كنتُ لا أقدر على قضائها إلا أننى أدخل بها على الله من هذه الناحية .

﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَاعِلُونَ ﴿٤﴾ ﴾

الزكاة أولاً تطلق على معنى التطهير ، كما جاء فى قول الحق تبارك وتعالى : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴿١٠٣﴾ ﴾ [التوبة] لأن الغفلة قد تصيب الإنسان حال جمع المال ، فيخالط ماله ما فيه شبهة مثلاً ، فيحتاج إلى تطهير ، وتطهير المال يكون بالصدقة منه .

والزكاة بمعنى النماء ، فبعد أن تُطهر المال تُنمِّيه وتزيده ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ ﴾ [الشمس] يعنى : نمَّى ملَكة الخير فيها ، ورقَّاها وصعَّدها بأن ينظر إلى العمل إنْ كان سينقص منه فى الظاهر ، إلا أنه سيجلب لك الخير فيما بعد ، فترتقى بذلك ملكَات الخير فى نفسك .

لذلك لما تكلم الحق سبحانه عن الربا ، وهو الزيادة جمع المتناقضات فى آية واحدة ، فالربا يزيد المال ويأخذ المرابى المائة مائة وعشراً ، فى حين تنقص الزكاة من المال فى الظاهر ، فالمائة بعد الزكاة تصبح سبعة وتسعين ونصفاً ، ثم تأتى الآية لتضع أمامك المقياس الحقيقى : ﴿ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ ﴿٢٧٦﴾ ﴾ [البقرة] ، فالربا الذى تظنه زيادة هو مَحْقٌ ، والذى تظنه نقصاً هو بركة وزيادة ونماء .

وفى آية أخرى يقول تعالى : ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الروم] أى : الذين يضاعف الله لهم ويزيدهم .

وكما أمرنا ربنا - تبارك وتعالى - بالخشوع فى الصلاة أمرنا كذلك فى الزكاة ، فلم يقل : مؤدون . ولكن ﴿فَاعِلُونَ ﴿٤﴾﴾ [المؤمنون] وهذه من تربية مقامات العبادة فى الإنسان ، فأنت حين تصلى ينبغى أن تخشع وتخضع فى صلاتك لله ، وكذلك حين تُزكّى تُرقِّى ملكة الخير فى نفسك ، فحين تعمل وتسعى لا تعمل على قَدْر حاجتك ، وإنما على قَدْر طاقتك ، فتأخذ من ثمرة سَعْيك حاجتك ، وفى نيتك أن تُخرج من الباقى زكاة مالك وصدقتك ، فالزكاة - إذن - فى بالك وفى نيتك بدايةً .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾﴾

الفروج : جمع فَرْج ، والمقصود سَوْءَتَا كُلٍّ من الرجل والمرأة ، وقد أمر الله تعالى بحفظها على المهمة التى خُلقت من أجلها ، ومهمة هذه الأعضاء إما إخراج عادم الجسم من بول أو غائط ، أو العملية الجنسية وهدفها حفْظ النسل ، وعلى الإنسان أن يحفظ فرجه على ما أحلّه الله له فى قوله تعالى :

﴿إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾﴾

أى : يحفظون فروجهم إلا على أزواجهم ؛ لأن الله أحلها ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ ﴿٦﴾﴾ [المؤمنون] ومِلْك اليمين حلال لم يَعُد له موضع ،

ولم يَعُد له وجود الآن ، وقد حرم هذا القانون البشرى الدولى ، فلم يعد هناك إماء كما كان قبل الإسلام ، فهذا حكم مُعطّل لم يَعُدْ له مدلول ، وفرق بين أن يُعطّل الحكم لعدم وجود موضوعه وبين أن يُلْغى الحكم ، فملك اليمين حكم لم يُلْغ ، الحكم قائم إنما لا يوجد له موضوع .

ولتوضيح هذه المسألة : هَبْ أنك فى مجتمع كله أغنياء ، ليس فيهم فقير ولا مستحق للزكاة عندها تقول : حكم الزكاة مُعطّل ، فهى كفريضة موجودة ، لكن ليس لها موضوع .

وبعض السطحيين يقولون : لقد ألغى عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - سهام المؤلفة قلوبهم[1] ، والحقيقة أنه ما ألغى ولا يملك أن يُلغى حكماً من أحكام الله ، إنما لم يجد أحداً من المؤلّفة قلوبهم ليعطيه ، فالحكم قائم لكن ليس له موضوع ، بدليل أن حكم تأليف القلوب قائم ومعمول به حتى الآن فى بلاد المسلمين ، وكثيراً ما نحاول تأليف قلوب بعض الكُتّاب وبعض الجماعات لنعطفها نحو الإسلام ، خاصة وغيرنا يبذلون قصارى جهودهم فى ذلك . إذن : فسَهْم المؤلّفة قلوبهم ما زال موجوداً ويُعمل به .

كما نسمع مَنْ يقول : إن عمر - رضى الله عنه - عطّل حَدَّ السرقة فى عام الرمادة ، وهذا ادعاء مخالف للحقيقة ؛ لأنه ما عطّل

---

(١) روى عبد الرحمن بن محمد المحاربى عن حجاج بن دينار عن ابن سيرين عن عبيدة قال : « جاء عيينة بن حصن والأقرع بن حابس إلى أبى بكر فقالا : يا خليفة رسول الله ، إن عندنا أرضاً سبخة ليس فيها كلأ ولا منفعة فإن رأيت أن تعطيناها ! فأقطعها إياهما وكتب لهما عليها كتاباً وأشهد ، وليس فى القوم عمر ، فانطلقا إلى عمر ليشهد لهما ، فلما سمع عمر ما فى الكتاب تناوله من أيديهما ثم تَفَل فيه فمحاه ، فتذمرا وقالا مقالة سيئة ، فقال : إن رسول الله ﷺ كان يتألفكما والإسلام يومئذ قليل ، وإن الله قد أغنى الإسلام ، اذهبا فاجهدا جهدكما لا يرعى الله عليكما إن رعيتما » . [أورده أبو بكر الجصاص فى أحكام القرآن ٣/ ١٦٠] .

هذا الحد إنما عطَّل نصاً وأحيا نصاً ؛ لأن القاعدة الشرعية تقول : ادرأوا الحدود بالشبهات . وما دام قد سرق ليسُدَّ جَوْعته فلم يصل إلى نصاب السرقة ، فالسرقة تكون بعد قدر يكفى الضرورة .

ولقائل أن يقول : إذا دارت حرب بين المؤمنين والكافرين وأسروا منا وأسرنا منهم ، ألا يوجد حينئذ ملْك اليمين ؟ نقول : نعم يوجد ملْك اليمين ، لكن ستواجهك قوانين دولية ألزمتَ نفسك بها وارتضيتها تقول بمنع الرقّ وعليك الالتزام بها ، لكن إنْ وُجد الرقُّ فملْك اليمين قائم وموجود . وهذه المسألة يأخذونها سُبّة فى الإسلام ، وكيف أنه يبيح للسيد كذا وكذا من ملْك يمينه .

وهذا المأخذ ناشئ عن عدم فهم هؤلاء للحكمة من ملْك اليمين ، وأن كرامة المملوكة ارتفعت بهذه الإباحة ، فالمملوكة أُخذتَ فى حرب أو خلافه ، وكان فى إمكان مَنْ يأخذها أن يقتلها ، لكن الحق سبحانه حمى دمها ، ونمَّى فى النفس مسألة النفعية ، فأباح لمَنْ يأسرها أن ينتفع بها وأحلّها له أيضاً .

ولك أن تتصور هذه الأمَة أو الأسيرة فى بيت سيدها ومعه زوجة أو أكثر وهى تشاهد هذه العلاقات الزوجية فى المجتمع من حولها ، إن من حكمة الله أن أباح لسيدها معاشرتها ؛ لأنها لن ترى لربة البيت بعد ذلك مزيّة عليها ؛ لأنهما أصبحا سواء ، فإذا ما حملتْ من سيدها فقد أصبحتْ حُرَّة بولدها ، وكأن الحق سبحانه يُسيِّر الأمور تجاه العتْق والحرية . ألاَ تراه بعد هذا يفتح باب العتق ويُعدِّد أسبابه، فجعله أحد مصارف الزكاة وباباً من أبواب الصدقة وكفّارة لبعض التجاوزات التى يرتكبها الإنسان .

ثم يقول سبحانه : ﴿ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ ﴾ [المؤمنون] يعنى : لا نمدحهم ولا نذمُّهم ، وكأن المسألة هذه فى أضيق نطاق .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾ ﴾

﴿ابْتَغَىٰ﴾ : طلب ، ﴿وَرَاءَ ذَٰلِكَ﴾ : غير ما ذكرناه من الأزواج وملك اليمين .

وسبق أن ذكرنا أن كلمة ﴿وَرَاءَ﴾ استُعْملت في القرآن لمعَان عدة ، فهي هنا بمعنى غير الأزواج وملك اليمين . ومن ذلك أيضاً قوله سبحانه : ﴿.. وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاءَ ذَٰلِكُمْ ﴿٢٤﴾﴾ [النساء] يعني : حرَّمت عليكم كذا وكذا ، وأحللتُ لكم غير ما ذُكر .

وتُستعمل وراء بمعنى بَعْد ؛ لأن الغيرية قد تتحد في الزمن ، فيوجد الاثنان في وقت واحد ، أمّا البعدية فزمنها مختلف ، كما في قوله تعالى : ﴿وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ[1] فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾﴾ [هود] يعني : من بعده ؛ لأن الزمن مختلف .

وتأتي وراء بمعنى : خلف ، كما في قوله تعالى : ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ [آل عمران] يعني : جعلوه خلف ظهورهم .

وتأتي وراء أيضاً بمعنى أمام ، كما في قوله تعالى : ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾﴾ [الكهف] ومعلوم أن الملك كان أمامهم ينتظر كل سفينة تمرُّ به فيأخذها غَصْباً .

---

(١) روى الأزهري عن الفراء في تفسير هذه الآية : « إنما ضحكت سروراً بالأمن لأنها خافت كما خاف إبراهيم » وقال الفراء : وهو ما يحتمله الكلام والله أعلم . وأما قولهم فضحكت : حاضت . فلم أسمعه من ثقة » أورده ابن منظور في لسان العرب ـ مادة : ضحك .

وقوله تعالى : ﴿مِن وَرَائِهِ جَهَنَّمُ..﴿١٦﴾﴾ [إبراهيم] وجهنم أمامه ، وستأتى فيما بعد ، ولم تَمْض فتكون خلفه .

ومعنى : ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٧﴾﴾ [المؤمنون] أى : المعتدون المتجاوزون لما شُرع لهم ، وربنا ـ تبارك وتعالى ـ حينما يُحذِّرنا من التعدى يُفرِّق بين التعدى في الأوامر ، والتعدى فى النواهى ، فإنْ كان فى الأوامر يقول : ﴿فَلَا تَعْتَدُوهَا ﴿٢٢٩﴾﴾ [البقرة]

وإن كان فى النواهى يقول : ﴿فَلَا تَقْرَبُوهَا ﴿١٨٧﴾﴾ [البقرة]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٨﴾﴾

﴿رَاعُونَ﴾ : يعنى يحافظون عليها ويراعونها بالتنفيذ ، والأمانة : كل ما استُؤمنْت عليه ، وأول شىء استُؤمنتَ عليه عهد الإيمان بالله الذى أخذه الله عليك ، وما دُمْت قد آمنت بالإله فعليك أن تُنفِّذ أوامره .

إذن : هناك أمانة للحق وأمانة للخَلْق ، أمانة الحق التى قال الله تعالى عنها :

﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾ [الأحزاب]

فما دُمْتَ قد قبلت تحمُّل الأمانة ، فعليك الأداء .

أما العهد : فكل ما يتعهد به الإنسان فى غير معصية ويلزمه الوفاء بما عاهد به ؛ لأنك حين تعاهد إنساناً على شىء فقد ربطْتَ حركته وقيدتها فى دائرة إنفاذ هذا العهد ، فحين تقول لى : سأقابلك غداً فى المكان الفلانى فى الوقت الفلانى لعمل كذا وكذا ، فإننى

سأرتِّب حركة حياتى بناءً على هذا الوعد ، فإذا أخلفتَ وعدك فقد أطلقتَ نفسك فى زمنك وتصرفت حسْب راحتك ، وقيَّدْت حركتى أنا فى زمنى وضيَّعت مصالحى ، وأربكت حركة يومى ؛ لذلك شدَّد الإسلام على مسألة خُلْف الوعد .

﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩ ﴾

فى الآيات السابقة تحدَّث عن الصلاة من حيث هيئة الخشوع والخضوع فيها ، وهنا يذكر الصلاة من حيث أدائها والحفاظ عليها ؛ لأن الحفظ يعنى أن تأخذ كل وقت من أوقات الصلاة بميلاده وميلاد الأوقات بالأذان ، لكن البعض يقولون : إن الوقت مُمْتدٌ ، فالظهر مثلاً مُمْتد من أذان الظهر إلى قبل أذان العصر ، وهكذا فى باقى الصلوات .

نقول : نعم هذا صحيح والوقت مُمتد ، لكن مَنْ يضمن لك الحياة إلى آخر الوقت ؟ مَنْ يضمن لك أن تصلى العشاء مثلاً قبل أذان الفجر ؟ نعم ، تظل غير آثم إلى آخر لحظة إذا تمكنتَ من الصلاة وصلَّيْتَ ، لكن هل تضمن هذا ؟ كالذى يستطيع أن يحج ، إلا أنه أخَّر الحج إلى آخر أيامه ، فإنْ حج فلا شىء عليه ، لكنه لا يضمن البقاء إلى أنْ يحج ؛ لذلك يجب المبادرة بالحج عند أول استطاعة حتى لا تأثم إنْ فاتك وأنت قادر .

﴿ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ[1] ۝١٠ ﴾

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٤٦٤١/٦) : « أى : يرثون منازل أهل النار من الجنة . وفى الخبر عن أبى هريرة عن النبى ﷺ : « إن الله تعالى جعل لكل إنسان مسكناً فى الجنة ومسكناً فى النار ، فأما المؤمنون فيأخذون منازلهم ويرثون منازل الكفار ويجعل الكفار فى منازلهم فى النار » خرجه ابن ماجه بمعناه » .

﴿ أُولَٰئِكَ ۝١٠ ﴾ [المؤمنون] يعنى : أصحاب الصفات المتقدمة ، وهم ستة أصناف : الذين هم فى صلاتهم خاشعون ، والذين هم عن اللغو معرضون ، والذين هم للزكاة فاعلون ، والذين هم لفروجهم حافظون ، والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون ، والذين هم على صلواتهم يحافظون .

هؤلاء هم الوارثون ، والإرْث : أَخْذ حق من غير عقد أو هبة ؛ لأن أَخْذ مال الغير لا بُدَّ أن يكون إما ببيع وعقد ، وإما هبة من صاحب المال . لذلك سألوا الوارث : أهذا حقك ؟ قال : نعم ، قالوا : فما صكُّك عليه ؟ يعنى : أين العقد الذى أخذته به ؟ قال : عقدى وصكّى : ﴿ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ ۝١١ ﴾ [النساء] فهو عقد أوثق وأعلى من تعاقد البشر .

وما دام عقدى من الحق - تبارك وتعالى - فلا تقُلْ : إن الميراث مأخوذ بغير عقد ؛ لأنه قائم على أوثق العقود ، وهو العقد من الله .

وكثيراً ما يخرج الناس فى مسألة الميراث عما شرع الله حُباً فى المال واستئثاراً به ، أو بخلاً على مَنْ جعل له الشرع نصيباً ، فمَنْ كان عنده البنون والبنات يعطى البنين ويحرم البنات ، ومَنْ كان عنده بنات يكتب لهُنَّ ما يملك حتى يحرم إخوته وأعمامهم من حقهم فى ماله ، وهذا كثيراً ما يحدث فى المجتمع .

ويجب عليك أن تتنبه لمسألة الميراث وتحترم شرع الله فيه وتقسيم الله للمال ، فقد وهبك الله المال وتركك تتصرف فيه طوال حياتك ، وليس لك أن تتصرف فيه أيضاً بعد موتك ، عليك أنْ تدعَ المال لصاحبه وواهبه يتصرف فيه ؛ لذلك قال الله تعالى عن الإرث : ﴿ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ ۝١١ ﴾ [النساء] يعنى : ليست من أحد آخر ، وما دامت فريضة من الله فعليك أنْ تمتثل لها وتنفذها ، وحين تتأبَّى عليها فإنك تتأبَّى على الله وترفض قسْمته .

والمتأمل فى مسألة الإرث يجد الخيـر كل الخير فيما شرعه الله ، ومَنْ كان يحب البـنين فليُعْط البنات حتـى لا يفسد عـلاقة أولاده من بعده ، ويأتى إلينا بعض الرجـال الذين أخذوا كل مال أبيهـم وحَرَموا منه البنات ، يقولون : نريد أن نُصحِّح هذا الخطأ ونعـيد القسمة على ما شرع الله .

ونجـد عند بعض الناس إشـراقـات إيمـانيـة ، فـإنْ رفض بعض الإخوة إعادة التقسيم على شـرع الله يقول : أنا أتحمل ميراث أخواتى من مالى الخاص ، ومثل هؤلاء يفتح الله عليهم ويبارك لهم فيما بقى ؛ لأنهم جعلوا اعـتمادهم على الله فيزيـدهم من فضله ويُربى لهم القليل حتى يصير كثيراً ، أما مَنِ اعتمد على ما فى يده فإن الله يكِلُه إليه .

ونعجب من الذى يجعل ماله للبنات ليحرم منه إخوته ، نقول له : أنت لستَ عـادلاً فى هذا التـصـرف ، يجب أن تعـاملهم بالمـثل ، فلو تركت بناتك فقراء لا مال لهن ، فمَنْ يعولهُنَّ ويرعاهن من بعدك ؟ يعولهن الأعمام . إذن : لتكُنْ معاملة بالمثل .

والحق - تبـارك وتعـالى - حـين يُورث هذه الأصنـاف يورثهم بفضله وكرمه ، وقـد بيَّن النبى ﷺ ذلك بقوله : « لا يدخل أحد منكم الجنة بعـمله ، قـالوا : ولا أنت يا رسـول الله ؟ قـال : ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله برحمته »[1] .

أمـا قوله تعـالى : ﴿ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٣٢) ﴾ [النحل] فـهذا خـاص بمجـرد دخـول الجنة ، أما الـزيادة فهى من فـضل الله ﴿ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ (١٧٣) ﴾ [النساء]

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٤٦٣) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٨١٦) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .